

الحجاز والحرمين الشريفان في القرن الثالث عشر

تأليف: جعفر شهيدى

لقد كان للشعب الإيراني - ولا يزال بحمد الله - منذ اعتنق الاسلام؛ اهتمام كبير بالمواظبة علي إقامة شعائر هذا الدين الحنيف وأداء مناسكه، والقيام بفرائضه بشوق بالغ وإيمان راسخ وقلب سليم. وأداء فريضة الحج أحد هذه المناسك المحببة إليهم، فقد شدوا الرحال وتحملوا أعباء السفر، واقتحموا المهالك والمخاطر، وجادوا بأموالهم وجاهدوا بأنفسهم عن طيب خاطر، ولذة مفرحة في سبيل الله، وإقامة أركان الشرع الحنيف، وبلوغهم صورة المسلم الكامل.

وكان من الطبيعي - أن نري علي مدي التاريخ الإسلامي - أن يحمل هذا التيار المتصل، عدة من العلماء والشعراء والكتاب، الذين نالوا هذا الفوز الكبير، وأنهم سجلوا هذه الرحلات، وقيّدوا تلك المذكرات ونظموا القصائد عن أسفارهم وما شاهدوه في الطريق، أو من التقوا به، ودار بينهم وبينه الحوار، حول شتى المسائل: من المباحث الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الانسانية، أو ما حلت بهم من المكاره والأخطار في الطريق، أو من أثر رؤية هذه المشاهد الشريفة في نفوسهم وما تحتويه من رموز التوحيد والاخلاص، أو تعارف المسلمين بعضهم علي بعض. ولما كانت هذه الرحلات أو بعارة أخرى هذه الوثائق والمستندات التاريخية، من شأنها أنها تلقي أضواء علي زوايا تاريخنا الاسلامي، فتمدنا بالكثير من المعلومات الهامة في مناحي العلم المختلفة وخاصة عن الحياة الاجتماعية أو الثقافية أو التجارية، التي كان يقضيها هذا القطر الإسلامي الشقيق في ذلك الوقت، هذا مضافاً إلي الناحية الفنية، التي تصورها الصورة الرائعة التي يمثلها الشاعر منهم في قصيدته، أو الأديب في رسائله، مما تهيج الطباع وتهز النفوس، وتخفق لها القلوب. ولعل كثيراً من المطلعين خبير بما نظمه الشاعر الإيراني " خاقاني الشرواني " في منظومته التي سماها " تحفة العراقيين " التي يصف فيها رحلته إلي مكة المكرمة؛ فيقدم لنا معلومات من حياة العرب الاجتماعية في القرن الخامس من الهجرة، حيث يصف الركب في ترحاله ونزوله، وموارد الماء التي يستقي منها للانسان والدواب، ويصف الطيائح ووقوف النوق عليها، والمواقيت والحرمين، ومنى وعرفات والمشعر، والكعبة - شرفها الله - وكسوتها، والحجر والأركان، وزمزم وازدحام الحاج عليها، كما أنه يصف مدينة النبي (صلي الله عليه وآله وسلم) ومسجد الرسول، وإقامة الجمعة والخطبة والخطباء، مما يطول بنا ذكره. فيأخذ بيد القارئ ويطوف به في أجواء من عالم القدس، ويريه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فيتوق قلب كل مسلم إلي زيارة هذه الأماكن، ويكاد المستمع يطير إلي الحرمين الشريفين جرياً وراء فؤاده. أو بما كتبه الرحالة "ناصر خسرو القبادياني" الشاعر الفارسي، الذي زار الحرمين الشريفين في القرن الخامس من الهجرة النبوية، حيث يصف لنا المسجدين بأدق صورة، ويبين مساحتهما، ويصف الكعبة وكسوتها والحجر ومنى وزمزم، وشوارع مكة وحماماتها، وسوق العطارين، وعدد سكان البلد، وسعر القمح، والقحط الذي أصاب البلد في تلك السنة.

هذا ولا يخلو كلُّ قرن من القرون من رحلات، أو مذكرات كتبها الرحالة أو الحجاج من إيران، لم تزل مخطوطاتٍ تخزن في مكباتنا بطهران ومشهد وتبريز وغيرها من البلدان، مما نتمني - بإذن الله تعالى - أن تقدم في

يحتوي علي

معلومات هامة مما يتعلق بالحجاز عامة، وبالحرمين الشريفين خاصة. □

وحيث إن بحثي المتواضع يتعلق بالقرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي - فلا أجد لي الحق أن أتجاوز عما كتبه الرحالة في هذا القرن. فإن في أيدينا من رحلات هذا القرن أكثر من عشر رحلات مخطوطة في المكتبة الأهلية ومكتبة مجلس النواب وإليكم أسماء بعضها:

١- الرحلة التي ألفها ضياء الدين آل كيوان قارئ، كتبها عام ١٢٢٩هـ. ق، (مكتبة مجلس النواب).

٢- الرحلة لمحمد حسن خان اعتماد السلطنة ١٢٤٣هـ. ق، (المكتبة الرضوية، مشهد).

٣- الرحلة، لمحمد علي فراهاني عام ١٢٤٣هـ. ق (مكتبة مجلس النواب).

٤- الرحلة التي كتبها سيف الدولة محمد بن فتح علي شاه القاجار عام ١٢٧٩هـ. ق، (المكتبة الأهلية).

٥- الرحلة، لأحد أقرباء ناصر الدين شاه القاجار، دونها عام ١٢٨٨هـ. ق، (المكتبة الأهلية).

٦- الرحلة، لأحد مقربي ناصر الدين شاه القاجار أيضاً، كتبها عام ١٢٩٦هـ. ق، (المكتبة الأهلية).

وهناك رحلات منظومة أيضاً كرحلة ميرزا جلاير (المكتبة الأهلية) ، ورحلة مشتري الخراساني وغيرها (١).

وهناك رحلتان أخريان كتبنا في مستهل القرن الرابع عشر، إحداهما لميرزا علي خان أمين الدولة، والأخرى لمخبر السلطنة هدايت ولهايتين الرحلتين أهمية خاصة، حيث إن مؤلفيهما من الأدباء الفضلاء ومن رجال الدولة والسياسة. وقد تقلد كل منهما منصب الوزارة، كما أن كلاهما تولي رئاسة الحكومة أيضاً. وهاتان الرحلتان مطبوعتان، ولكن لم تترجما إلي اللغة العربية بعد.

كل هذه الرحلات التي قدمناها في مجموعها، صورة من الحياة الاجتماعية في القرن الثالث عشر لسكان الحجاز، فتصف لنا أول ما تصف مثلاً لقاءات الحجاج بمطالع المروءة، واستقبال أهل الأحياء لهم، كالنساء اللاتي يستقبلن القوافل، ويعرضن عليهم الخبز والليمون، وتصف أزياء هن بأنها شملة زرقاء من الأبريسم مطرزة بالذهب و"جلايتون"، أو الأطفال الذين ينشدون حول القوافل:

سيدي اعط من زادك الله يعطي مرادك

أو تصف طائفة تستقبل الحجاج حين دخولهم مكة، فتعطي لكل واحد تمرتين وفنجان من ماء زمزم، كما أنها تصف هجوم الأشرار علي القوافل ونهبهم الأموال وقتلهم الأنفس أحياناً كما أنها تسجل أسعار الأمتعة والأرزاق وأجرة الدور، مما يدل علي الوضع الاقتصادي، ومصدر الدخل لطبقة معينة، ومستوي معيشتهم في ذلك العصر. أو ما يصفون به مياه "ينبع" أنها من ماء المطر الذي يخزن في سراديب، فينقلب لونه إلي الزرقة، وريحه إلي العفونة، فينصرف الضمان إلي شرب القازوز بدل الماء. وتذكر وصف الدراويش الذين يتجولون في شوارع مكة ليلاً، وينشدون القصائد بصوت عالٍ فلا يتمكن الانسان أن ينام من أصواتهم التي تشق أجواء الفضاء.

كل هذا لابد من أن يدرس؛ لكي يعلم مدي ما وصل إليه هذا القطر الشقيق المبارك، من السعة في العيش والرعدة في الحياة، وبلوغ الحضارة في ظل الأمن والسلام. ونتعرض الآن إلي بعض ما جاء في رحلة أمين الدولة ورحلة مخبر السلطنة هدايت:

جدة: الغالب في أبنية جدة بنايات ذات ثلاثة طوابق مبنية من الحجارة، وضحن العمارات مفروشة بالرخام وفيها حياض يجري فيها الماء من النافورات. واعتقد أن بعض هذه الدور يقارن الدور التي رأيتها في البلاد الغربية. ومن المعالم الأثرية، التي زرتها في جدة، قبر

طوله خمسون خطوة، يقال إنه قبر أمنا حواء، وإلي جانبها صورة، ومن الغريب أن هذه الصورة هي صورة لنصف جسدها من ظهرها إلي رأسها، وإنني كدت أطيّر فرحاً وشوقاً لما نزلت من البحر إلي هذه الأراضي المقدسة، واغرورقت عيناى بالدموع حينما دخلت جدة، ولكن لما أراني دليلي شكل هذا القبر وتلك الصورة المضحكة زال عن قلبي كل الخضوع وغلبنني الضحك من رؤية تلك الخرافة. .

مكة: أرض مكة مكسوة بالرمال فيصعب علي الدواب السير عليها، ولذلك عبدوا بعض الممرات، التي يصعب العبور منها، بالحجارات المنحوتة.

تقع مكة في الجنوب الشرقي من البحر الأحمر، بينها وبين المدينة ٨٠ فرسخاً، ويبلغ عدد سكانها - من القاطن والمجاور - ستين ألفاً، ولها ثلاثة أسوار كل سور داخل الآخر، وشوارع البلد متسعة، ولكن البيوت لا صحن لها.

ويصف أمين الدولة دور مكة فيقول: الدار التي نزلنا فيها دار جميلة ولها أزر من الرخام المصنوع، وفيه حياض عليها رؤوس الأسود وسائر الحيوانات، يجري منها الماء في الجوض، ولا يوجد في كثير من البلدان الإسلامية دور جميلة كهذه ولا في بعض البلدان الغربية أيضاً. المسجد: يقع المسجد في وسط البلد، وطوله ٢٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٤، فتبلغ كل المساحة ١٢١٦٠٠ ذراع، والكعبة - شرفها الله - في وسط البيت. والمسجد غير مسقوف، إلا أنه يحاط بالايوانات المسقوفة من كل جانب، والسقف قائم علي ١٢٤ أسطوانة. وجدان المسجد مبنية من الحجارة السوداء. وللمسجد ١٨ باباً، منها باب النبي (صلي الله عليه وآله وسلّم) علي الجانب الشرقي، وعلي الجانب الأيسر منه زمزم ومقام حنبل، ومقام مالك وراء البيت، ومقام الحنفي علي جانب الشمالي، وأما الشافعي فلا مقام له.

كسوه الكعبة: وهي من الحرير الأسود مزركشة، تهدي كل سنة من جانب الموكب المصري، ففي يوم عيد الأضحى، يدخل أمير الحج المصري في المسجد وتندق الطبول أمامه وينفخ في الأبواق، فيقف عند الكعبة ويأتي عشرون خادماً سوداً فيخلعون الكسوة القديمة ويعقلون الجديدة عليها، وتهدي الخليفة القديمة للشريف، وهو يهدي قطعاً منها لذوي الشخصيات. يقول هدايت أهدي لي الشريف قطعة منها، وعليها صورة وردة كتبت من سورة الاخلاص وهي الآن زينة مكتبتي.

الصفا والمروة: وهما نهدان علي طريق باب النبي، بينهما سبعون خطوة (*) ، والأرض غير مسطحة، فالساعي لا بد من ان يتحمل مشقة كثيرة لا محالة. ولما كان بعض الحجاج يسعي علي ظهر الدابة فكثيراً ما تري الأرض ملطخة بالأرواث والقذارات، والروائح الكريهة هنا لا يمكن أن تتحمل.

عرفات: والحق أنها عرصات من كثرة الازدحام واللغط والضوضاء والضجيج. وفيها قناة تجري علي وجه الأرض؛ والشجر الطرفاء هناك كثير. وفي جبل عرفات قروذ كثيرة، سمعت أن بعض الحجاج يصطادون صغارها ليذهبوا بها إلي أوطانهم وهذا أمر غريب؛ لأن الصيد في مكة محرم وخاصة للمحرم في عرفات.

مني: تقع مني بين الجبلين وفيها ميدان فسيح يضرب الحجاج فيه خيامهم. وهناك ماء يجري من قناة تعرف بقناة زبيدة، يقال إن زبيدة زوجة هارون الرشيد العباسي أجرته فيها. وفي مني تقام أسواق الهند والمغرب والروم لمدة ثلاثة أيام تعرض فيها أمتعة هذه البلاد. ونحرننا بمني في يوم العيد، ومسألة النحر هناك مؤسفة جداً، حيث إن هناك يذبح حوالي ألف من غنم وجمل، ثم تدفن جثثها تحت التراب لئلا تفسد. فلماذا لا يقوم فقهاء المسلمين وزعمائهم باتخاذ تدبير بشأن هذا؟ .

معبداً من معابد المسلمين يكون بهذه الصورة، أفٍ للحجاج لقصورهم وأفٍ لزعماء المسلمين لتقصيرهم.

وفي مني يوقدون المصابيح ليلتين؛ ليلية الحادي عشر من ذي الحجة، وهذه الليلة تختص بالشيعة، وليلة الثاني عشر منه وهي تختص بالسنة. ويقف العسكر الشامي في هذه الليلة في مني بجانب، والعسكر المصري بجانب آخر، ويبلغ عددهم أربعمئة خيال. ووراء العسكرين يقف ألفا جندي يطلقون البنادق والمدافع والمسدسات لمدة ساعتين. أعتقد أن البارود الذي يصرف في هاتين الليلتين، لا يصرف في أي ميدان من ميادين الحرب.

المدينة: قطعنا المسافة بين مكة والمدينة في عشرة أيام. وفي اليوم العاشر من محرم، لما عبرنا عقبة صغيرة بدا سواد المدينة. وكان علي جانبنا الأيسر مسجد الشجرة، ويقع في أرض سهلة وهو ميقات أهل المدينة وتستحب فيه ركعتان، ويقول أمين الدولة: ورأيت قبة من بعيد، فسألت دليلي: هل هناك مسجد الشجرة؟ قال: لا. لأنه واقع في الطريق السلطاني، ولكن القبة الخضراء التي تراها هي قبة مسجد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ). فأمرت أن يوقف العماري فنزلت وأعطيت ليرات للمكاري شكراً، وأخذت أمشي، فقال دليلي الطريق بعد ولعلك تتعب، قلت: كلا. فكأنني الآن أمشي علي الحرير والاستبرق. وفي المدينة أجرنا بيتا بثلاثة ريالات فرنسية لكل يوم، وذهبنا إلي المسجد قبل الغروب بنصف ساعة، فقبل لنا لا يسمح للأعاجم أن يدخلوا المسجد بعد العصر. فذهبنا إلي البقيع فلم يؤذن لنا هناك بالدخول أيضاً.

مسجد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أقصر من المسجد الحرام بكثير، والقسم الأعظم منه مسقوف، والمسجد مبني من الحجارة والأجر. بناه الملك الأشرف "قايتباي" من سلاطين الشركس. وللمسجد تسعة أبواب منها باب الرحمة، وباب التوسل، وباب النساء، وباب جبرئيل، وباب قايتباي. وفي المدينة ذهبنا إلي سفح جبل أحد، فهناك كان مقتل حمزة عم النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) والشهداء الذين استشهدوا في الغزوة المعروفة بغزوة أحد. وذهبنا إلي مسجد قبا وفيه تحولت القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة المشرفة. وفي طول الطريق من المدينة إلي قبا كانت بساتين النخل تتوالي، وهذا الطريق يقطعه الراكب في عشرين دقيقة. والأراضي حول المدينة قريبة إلي الماء، حيث يحفر البئر فيها في أكثر المواقع. ولما أردنا أن نرحل من المدينة حفرنا في أحد المنازل الأرض وظهر الماء في عمق لم يكن أكثر من ذراع، حيث تمكنوا من الاستسقاء لثلاثة آلاف بعير وأخذوا الماء لطريقهم أيضاً.

- (١) راجع فهرس المخطوطات (فهرست نسخه هاي خطي)، أحمد منزوي، ٤٣٠:٤ - ٤٣٤. (* كذا بالأصل، والمعروف أن المسافة بين الصفا والمروة أكثر بكثير من "سبعين" خطوة. (المحرر).